الرصافى ، والحر ، ووحدة الوجود

للأســـتاذ دريني خشبة

الدنيا حر ! والـكلام فى الفلسفة ، وفى وحدة الوجود كما يفهمها الأستاذ الفاضل ، معروف الرصافى ، يزيد رهق هذا الصيف القاهرى الفائظ ، والناس لهذا السبب محتاجون إلى ما يسليهم لا إلى ما يكربهم ، ويؤجج الدنيا من حولهم ، ويزيدها سموماً إلى سموم ...

إلا أننا مع ذلك لا نرى بداً من العودة إلى هذه القضية ، قضية الأستاذ الفاضل ، معروف الرصافى ، أو قضية وحدة الوجود ، مكرهين ، بعد إذ حسبنا أننا قلنا فيها الـكلمة الأخيرة ، أو كلمتنا نحن الأخيرة على أقل تقدير ...

فأستاذنا الفاضل المحبوب (نقولا الحداد) يتفضل فيشرف هذه القضية بالاشتراك فيها ، فى حيّز خاص ، ويلاحظ أننا لم نورد تعريفاً لنظرية وحدة الوجود ، ولا اقتبسنا هذا التعريف عن كتاب الرصافى (إن كان الرصافى قد عرّفها) ثم قال حفظه الله إن مقالنا الثالث زاد النظرية غموضاً ، بل جعلها (تغيب وراء سحب تلك الفلسفات السفسافية التى يعجز القارئ عن أن يحصل منها معنى معقولاً) . ثم أخذ الأستاذ الجليل يفيض علينا بعد ذلك من علمه الغزير الذى طالما انتفعنا به ، شارحاً رأيه ، أو رأى العلم الحديث ، فى نشأة الخليقة ، مما لا نعرض له هنا بخير أو شر ... لأن الدنيا حر ، كما بدأنا هذه الـكلمة ، ولأن الرجل الذى لا يعترف بالوجود إلا للمادة ، ويقرر أنه ليس وراء الطبيعة شىء ... وأنها — أى الطبيعة — هى كل شىء وأنه يعتبر مسئلة نسبة الله إلى الوجود ، أو نسبة الوجود إلى الله مسئلة فقهية لا هوتية لا يتعرض لها بتاتاً ... ذلك الرجل الفاضل الذى يقول هذا جازماً به غير متردد فيه ، لا بد أن يكون بطل هذا الموضوع . والبطولة فى هذه الموضوعات الشوائك تفتح أبواباً ليس فى فتحها خير لأحد ، لأنها تفضى إلى مجادلات فارغة ، وتولد خصومات مرة . بل ربما أحدثت فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصة

ونحب أن نوضح موقفنا فى هذه القضية التى ابتلانا بها الأستاذ الفاضل معروف الرصافى ، كى يقتصد بعض كتابنا الأجلاء ، وأدبائنا المحترمين ، فلا يحرفوها عن مواضعها ، ولا يبعدوا بها عما أردنا أن نحصرها فيه . فقد ألف الأستاذ الرصافى كتابه تعليقاً على كتابى صديقنا الأعز الدكتور زكى مبارك : التصوف الإسلامى والنثر الفنى ، ثم تعليقاً على كتاب لمستشرق إيطالى يدعى (لئونا كايتانى) سماه (التاريخ الإسلامى) ، والتعليقات على الـكتابين الأول والثالث تعليقات من وجهة نظر تعد إسلامية بحتة ، وقد ذكرنا شيئاً كثيراً عن معتقدات الأستاذ الرصافى الذى لا يفهم معنى للآية : لا إله إلا الله ... ويرى الصحيح أن يقال : لا إله إلا الوجود . وينكر الوحى على الصورة التى يؤمن بها المسلمون ، وينكر أن القرآن كلام الله . ويكرر عبارة ... قال محمد فى القرآن ، فى معظم صفحات كتابه ، ثم ينكر البعث على صورته الإسلامية ، وينكر الحساب والثواب والعقاب ، ويؤولها تأويلاً سخيفاً مضحكاً أشرنا إليه فيما كتبنا من قبل . ويؤمن — كما ننقله بحروفه من مقالنا الثانى (العدد ٥٧١) — بوحدة الوجود فيقول : « إن البحث والتفكير قد ألجآنى إلجاء لا محيص عنه إلى الإيمان بوحدة الوجود (ص ١١) » ، وأن الله هو الوجود المطلق اللانهائى (ص ١٣) ، ويدعى أن كل شىء فى هذا العالم جزء من الله ، أو أن المخلوقات « مظاهر للوجود الكلى » كظاهر الأمواج لماء البحر المائج ، (وقد فاتنا أن نذكر أن هذا التشبيه ليس من اختراع الرصافى ، بل إنه قد أخذه عن شيخه التلمسانى أحد القائلين بهذا الإفك — ولا يؤاخذنا الأستاذ زكريا — (كتاب الحجج النقلية والعقلية للعلامة ابن تيمية ص ٧٩) ، وهذه هى وحدة الوجود التى يؤمن بها الرصافى ، الله هو العالم والعالم هو الله ، وأن ممن قال ذلك فى القرآن فى سورة الحديد : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » ؛ فإن هذه الآية تدل بمفهومها دلالة صريحة على أن لا موجود إلا الله ... هو الأول الذى ليس له بداية ، والآخر الذى ليس له نهاية ، وليس معنى هذا إلا أنه هو السرمدى اللانهائى ، وهو الظاهر الذى نراه بأعيننا وندركه بحواسنا ، (أى نراه ونشمه ونسمعه ونذوقه ونحسه ، ولا أدرى ماذا

أيضاً !) والباطن الذى لا تراه ولا تدركه ، وليس معنى هذا إلا أنه هو كل شيء ، وأنه لا موجود غيره . ونحن إذا أخذنا صفو المعنى من عبارة الآية قلنا بأن الله هو الموجود الكلى المطلق اللانهائى ، وأنه لا موجود غيره . هذه هى وحدة الوجود التى هي أساس مذهب التصوف وهذا منشؤها » (بحروفه من الرسائل ص ١٣)

وقد فرع الرصافى من هذه النظرية كل ما ذهب إليه من إنكار ما أنكر من صميم العقائد الإسلامية التى تخرج منكرها من حظيرة الإسلام ، ثم فرع منها تساوى المتضادات ، فالخير مثل الشر ، ومصيرهما واحد ، والتقى مثل الدعارة ، والكفر مثل الإيمان ، والأبيض مثل الأسود ، والعقل مثل الجنون ، وتفكير العلماء المهذبين مثل تخريف الجهلاء المخرفين ، ولا فرق بين فضيلة ورذيلة . والمتغفل لهذا السبب ، هو الذى يحرم نفسه من لذة أتيحت له ، سواء أتاحها له الرحمن أو هيأها له الشيطان ...

والأستاذ الفاضل معروف الرصافى ، يدعونا فى آخر كتابه إلى الأخذ بآرائه هذه ، ويعزو غفلة المسلمين وتأخرهم إلى التمسك بحرفية الإسلام وعدم تأويله كما تزخرف له الأباطيل التى فرعها عن تلك النظرية . وقد ذكرنا فى مقالنا الأول ، كما ذكرنا فى مقالنا الأخير أنه لولا هذه الدعوة لأهملنا الرد على ترهاته إهمالاً تاماً . . . لأننا لسنا موكلين بأفهام الناس ، ولا جعلنا الله قوامين على حرية الفكر

من هذا يرى أستاذنا الفاضل المحبوب نقولا الحداد أن القضية قضية إسلامية ، زعم الرجل المسلم الذى أثارها — أنها من تفكير رسول المسلمين ، وأن متصوفة المسلمين هم الذين أذاعوا بها ونشروها ، مما اضطرنا إلى نقض هذا الزعم بإثبات وجودها فى الفلسفة اليونانية . . . فى ذلك المقال الذى لا أدرى والله كيف زاد النظرية غموضاً

ومن هذا يرى أستاذنا الفاضل المحبوب نقولا الحداد ، أننا قوم مسلمون ، قام فينا رجل ينقض لنا معتقداتنا ، ويزعم لنا أن الحمير والبغال والجمال والحمام والبط والأوز والهوام والضفادع وكل ما يدخل فيها ويخرج منها هو جزء من الله الذى نعبده ونؤمن به ... وأننا نستطيع أن ندرك هذا الإله فنراه ونشمه ونتذوقه ونسمعه ونحسه ونأكله ونشربه ونلفظه ونبنى به بيوتنا بجميع غرفها وجميع « مرافقها ! » فنتام فيه ونخرج منه — ولا نخرج منه إلا إليه ! — ثم يأتى يوم فنهدمه !

أفإن زعم لنا هذا الرجل تلك المزاعم ، وزعم لنا أن رسولنا الكريم هو صاحب هذا اللغو . وأن ما نؤمن به من إله قدير خلق هذا العالم ولا يعقل أنه هو ... أو هو إياه ! — باطل أوقعنا فيه قصر نظرنا . ثم غلا بعد ذلك فهدم المعايير الأخلاقية بقوله فى تساوى المتضادات ... فهل يوافق أستاذنا الجليل المحبوب ، « نقولا حداد » على ترك هذا الإفك ، يسمم عقول المسلمين ، وإغفال تلك الأراجيف تعبث بالفضائل التى يحثنا عليها ديننا الكريم القويم ؟!

لست أدرى لماذا أوجه هذا الحديث كله إلى الأستاذ نقولا الحداد ، ولا أوجه شيئاً منه إلى الكاتب الأديب الفاضل الأستاذ زكريا إبراهيم (الليسانس فى الآداب والفلسفة بدرجة الشرف الأولى) الذى طالما أثنيت على رقائقه الجميلة لأستاذنا الزيات ، شفاه الله وعافاه ، وحفظه للأدب والدين ، وإن أنكر الرصافى المغوار فائدة الصلوات والأدعية

لست أدرى لماذا لا أوجه شيئاً من هذا الحديث إلى أخينا الأستاذ زكريا ؟! أ لكونه جعلنا فى كلمته الطيبة من العوام الذين يرمون الناس بالإلحاد ويمنحونهم ألقابه التى لا تكلفهم شيئاً ؟ أم لكونه جعلنا نكرة حيث تفضل علينا بتلك الأشارة العظيمة الكيسة التى سوف تكسبنا الخلود ! لا هذا ولا ذاك ... فنحن مع ذلك نعترف بقيمة ما قرأناه لهذا الأديب المفكر المهذب ، ولكنا بالرغم من حسن رأينا فيه ، نصر على توجيه السؤال التالى إليه :

أيؤمن حضرته بأن هذا العالم غير موجود ؟ وبما انتهى إليه ابن عربى من أن العالم متوهم ما له وجود حقيق ، لأنه ليس ثمة غير حقيقة واحدة لا تتكثر ولا تتغير ، وهذه الحقيقة الواحدة هى الله أو الحق ، وأنه ما ثم إلا الله الواجب الوجود ، الواحد بذاته ... الخ ؟